انتفاضات القبائل ضد مظالم البايات العثمانيين في منطقة غليزان

العربي سعيدي
المركز الجامعي -غليزان

بعد سقوط غرناطة سنة 1492م بدأ الخطر الإسباني يهدد الجزائر منذ سنة 1503م .و قد إستغل الغزاة صراع الأخوين: "أبو زيان الثالث المسعود" و "أبن حمو الثالث بوقلمون" على العرش بتلمسان ،فاحتلوا عام 1505م المرسى الكبير ثم وهران سنة 1509 م ،ومستغانم في 1511م، وكانت المدينتان تابعتين للدولة الزيانية [1].

و في هذه الظروف المتميزة بضعف حكام بني زيان ، وتعاون بعضهم مع الإسبان للبقاء في الحكم ،إتصل أعيان الإمارات الصغيرة بالإخوة بربروس لمواجهة الصليبيين ، ومنهم: "الشيخ أحمد بن القاضي الزواوي "صاحب جبل كوكو بمنطقة القبائل أو "سالم التومي" شيخ قبيلة الثعالبة في مدينة الجزائر ،و"حميدة العبد"[2] شيخ قبيلة سويد[3] (المحال) الهلالية في تنس و سهل مينا (غليزان)حاليا . كان "حميدة العبد، من المرحبين بالإخوة بربروس لمحاربة الإسبان ،و لكنه كان غيورا على سلطته في إمارة "سويد" الممتدة من تنس مرورا بغليزان إلى غاية مستغانم[4].

1- عدم الإنسجام مع حكم الأتراك :

ثار "حميدة العبد"منذ سنة 1517م ضد "عروج"بمعية حملة قوامها عشرة آلاف فارس من قبيلة سويد (المحال) ،لكن "عروج"باغته في منطقته و إنتصر عليه بسهل الشلف في جويلية 1517 م و أخـــذ منه المناطق الممتدة بتنس و غليزان و مستغانم.[5] وبعد المفاوضات الطويلة أعاد له "خير الدين"مدينة تنس ،أين إسترجع "حميدة العبد"مكانته بين قومه ، وظل متعاونا مع العثمانيين في مقاومة الإسبان ، وفي الحملة على مدينة تلمسان التي كان يقودها "حسن آغا"سنة1543م،أسهم "حميدة العبد" بألفي فارس[6]، وبعد وفاته سنة 1545م،أصبحت المنطقة ضمن بايليك الغرب منذ سنة 1565م، و قاعدته مازونة[7].

2- قبيلتي سويد وفليتة في مواجهة البايات :

واصلت قبيلة "سويد"(المحال) حربها ضد مظالم حكام بايات وهران ،ثورة "المحال" في منطقة غليزان

و ضواحيها سنة 1743م،التي تزامنت بتولي الباي "مصطفى قائد الذهب"حكم الإيالة الغربية كما تسببت في إقالته فيما بعد[8] .

و لما تولى صهره"عصمان بن براهيم "حكم الإيالة سنة 1747م، إستفز قبيلة سويد، و إنتقم منهم و أجلاهم إلى تلمسان ثم إلى وهران ،و بعد ذلك أرجع من بقي منهم إلى موطنهم ، بين مينا و الشلف ،بعد ما حصل الصلح بينهم و بين الباي عصمان[9]. و أرجعت المصادر المعاصرة أسباب إنتفاضة قبيلة سويد علي الباي إلى :

"الصراع حول الأراضي الخصبة في سهل الشلف و حوض مينا الممتد من أراضي وادي الجمعة إلى وادي أرهيو جنوبي منطقة غليزان ،حيث كانت جل بطون المحال مستقرة قبل أن يحاربهم بايات وهران" [10].

ومن جهتها قبيلة "فليتة" [11] لم تكن راضية عن نظام الباي "محمد بن عثمان"القائم على التمييز ما بين القبائل وتقسيمها إلى رعية ومخزنية ،فثارت فليتة عام 1769 م،على النظام الضريبي غير العادل ، و الذي كان يلزم القبائل الرعية بتقديم رسوم الزكاة و العشور ،إلى جانب الضرائب الإضافية كالغرامة ،والمعونة ،و اللزمة[12].

في حين كانت القبائل المخزنية دون بقية السكان تستفيد من الإعفاء من الضرائب الإضافية ،كما تستفيد من منافع و مزايا كثيرة [13] . و هذا النظام التمييزي الذي سمح لبعض حكام الأتراك المتكالبين على جمع الثروات ،تسبب في إتلاف موارد القبائل الرعية و دفعهم إلى الثورات والإنتفاضات ، منها قبائل الحشم وفليتة[14] . وقد واجه الباي "محمد الكبير"(1780-1797) موقف القبائل الرعية ،بالقمع للمحافظة على إستقرار بايليك الغرب ،وواصل على دربه بايات آخرون[15] .

:

إندلعت ثورة "عبد القادر الشريف الدرقاوي "الفليتي ،سنة 1802م،ودامت حوالي عشر سنوات ،على مظالم البايات الأتراك ،إعتبرها بعض الكتاب "فتنة عم فيها الخوف و الجوع وكادت أن تقضي على حكم البايات و نظام الأتراك عامة"[16].

كما تزامنت و تعيين المسمى "مصطفى العجمي" بايا على وهران ، و الذي لم يكن على إطلاع بأنحاء بايليك الغرب ، و تمثلت ميزته في نهب الشعب ، لذلك وجه الشريف الدرقاوي نداءه إلى قبائل الرعية قائلا لها : "أنا نزعت عنكم ما كنتم فيه من أداء الجزية ...وقطعت دابر الاتراك و أتباعهم ،فالواجب مبايعتنا و الجهاد معنا "[17]. و إنضم إلى انتفاضته معظم سكان المناطق الريفية ، ومنهم في غليزان وجديوية و وادي أرهيو[18].

وتعد معركة فرطاسة التي جرت سنة 1805م،من أهم المعارك التي إنتصرفيها أتباع الدرقاوي على "مصطفى العجمي" باي وهران ،مما تسبب في إقالته من منصبه ،وتعيين "محمد المقلش" سنة 1805م [19]،الذي أقبل بجيش كبير و اتجه به على بعد 15 كيلومتر غربي غليزان نحو زاوية الولي سيدي أمحمد بن عودة حيث كان الثائر الدرقاوي مستقرا بها ،و لم ينج من القتل في هذه المعركة إلا من لجأ إلى ضريح سيدي أمحمد بن عودة [20].

و لما أعيد الباي "مصطفى العجمي"مرة ثانية إلى الحكم سنة1807م، حارب ثوار درقاوة في موقعتين :الأولى سميت بمعركة يوم الثعالبة ، و الثانية بمعركة مدغوسة التابعتين لقبيلة فليتة و هي من أراضي فرطاسة على الحدود بين معسكر و غليزان[21] .

في سنة 1808م حاربهم مجددا الباي "محمد بن عثمان "بوكابوس،وقضى عليهم في مواضع كثيرة ، وبعد مقتل بوكابوس سنة 1813م،واصل الباي "قارة بغلي"الحرب ضد درقاوة بناحية مازونة ،و إلتحق الثائر "محمد بن الأحرش"بثورة الدرقاوي وخاض معه معركة جديوية 1816م [22].

:

أقدم جيش الباي "حسن بن موسى الباهي"سنة 1829م على مهاجمة زاوية الشيخ " إبن قندوز القداري" بتحمدة(بالمطمر) من أراضي غليزان ، و كان من بين طلبة هذه الزاوية أبناء فليتة، و أرسل باي وهران "إبن دهماء العامري" إلى الشيخ "إبن قندوز" فأخذه مقيدا إلى الباي ، الذي أمر بقتله في منطقة واريزان بوادي أرهيو [23].

ثم كثر عبث هذا الباي و ظلمه و تعديه ،على العلماء و الأولياء و الرعية ، وكثر منه الضلال و التردي ، فأكثر من سفك الدماء في العباد و حتى في علماء آخرين من غليزان "كإبن عبد الله بن حواء التيجاني " و الشيخ " فرقان الفليتي[24] .

و هذا الوضع دفع بجل قبائل منطقة غليزان للمشاركة في كل إنتفاضة ضد مظالم البايات ،الذين لم يدركوا التحديات الجديدة ، و لم يواكبوا العصر الحديث ، بل إنهمكوا في نهب الخيرات ، و جمع المال ، ويشير صاحب دليل

الحيران إلى جباية الباي "حسن الباهي " للغرائم دون وجه حق :" ولما نبهه بعض أصحابه إلى ذلك أجابهم قائلا : إن أهل غليزان قد أكلوني بالكلية ،ولذلك تراني أكلت الرعية "[25].

و لأن أهل المنطقة و أعرابها سئموا سطوة جند الأتراك فقد وقع الإحتلال الفرنسي لمدينة وهران يوم 4 جانفي 1831 م في عهد الباي "حسن الباهي" [26].

:

(1)- عمار بن خروف العلاقات السياسية بين الجزائر و المغرب في القرن 10/ 16م الجزائر:دار الأمل 2006ج1ص.17 .

(2) Haédo,(F.Diego de),Histoire des Rois d'Alger ,(Trad.H.D de Grammont),A.jordan,Alger ,pp,25-27

(3)سويد (المحال) قبيلة عربية هلالية عتيدة كانت تتشكل من بطون عديدة تفرعت عن قبيلة زغبة الهلالية .أنظر :

عبد الرحمن إبن خلدون ،كتاب العرب وديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب و العجم و البربر و من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، بيروت :دار الكتب العلمية 1992ج6ص.56.

(4) Sinan–chaouch ,fondation de la Régence d'Alger :Histoire des frères Barbarouse ,G.A.L ,Alger 2006, p.311

(5) عبد الرحمن ، بن محمد الجيلالي ، تاريخ الجزائر العام ،الجزائر : ديوان المطبوعات الجامعية ،1994ج3ص.34 .

(6)- Moulay,(Belhamissi),Histoire de Mostaganem,S.N.E.D, Alger, 1982,p.70

(7)–يحي بوعزيز ، مدينة وهران عبر التاريخ ، ط2 ، وهران :دار الغرب للنشر و التوزيع ،2002، ص.79.

(8)– بن عودة، المزاري ، طلوع سعد السعود ،(تحقيق و دراسة :يحي بوعزيز)، بيروت :دار الغرب الإسلامي ،1990 ،ج1، ص.281.

(9)– نفسه ،ج1، ص.283.

(10)–أحمد، إبن سحنون الراشدي ،الثغر الجماني في إبتسام الثغر الوهراني ،(تحقيق و تقديم :المهدي البوعبدلي)،الجزائر :مطبعة البعث،1973،ص.36

(11)- فليتة إسم قبيلة عربية ذكرها عبد الرحمن إبن خلدون ضمن الفروع التابعة لقبيلة زغبة الهلالية ، و كان إستقرارها بمنطقة غليزان و ضواحيها قبل القرن الثالث عشر الميلادي .أنظر:

عبد الرحمن إبن خلدون ،المصدر السابق ، ص.56.

(12)- ناصر الدين، سعيدوني ،"دور قبائل المخزن في تدعيم سلطة البايليك التركي "، مجلة الأصالة ،ع32،1976 ، ص.50.

(13)- Mahfoud,Kaddache,l'Algérie durant la période ottomane ,O.P.U, Alger 1998,p.139.

(14)- إبن سحنون ، المصدر السابق ،ص.36.

(15)- نفسه،ص،57.

(16)- أبوراس، الناصري ،فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي و نعمته ،(تحقيق :محمد بن عبد الكريم)،الجزائر :المؤسسة الوطنية للكتاب ،1990،ص .24.

(17)-حمدان، بن عثمان خوجة ،المرآة،(تقديم وتعريب و تحقيق : محمد العربي الزبيري) الجزائر :الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ،1982،ص.139.

(18)- Delpeche .(A) « Résumé historique sur le soulèvement des derkaoua de la province d'Oran »,in,R.A(N°78),1937,p45 .

(19)- أحمد، بن هطال ، رحلة الباي محمد الكبير إلى الجنوب الصحراوي الجزائري ، القاهرة :عالم الكتب،1969 ، ص.14.

(20)- مسلم، بن عبد القادر ،خاتمة أنيس الغريب و المسافر في طرائف الحكايات و النوادر ،(تحقيق و تقديم :رابح بونار)، الجزائر :الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ،1974،ص.97.

(21)- نفسه ، ص.98.

(22)-نفسه ،ص.99.

(23)- محمد بن يوسف، الزياني ، دليل الحيران و أنيس السهران في أخبار مدينة وهران ،(تقديم و تعليق :المهدي البوعبدلي)، الجزائر :الشركةالوطنية للنشر و التوزيع،1978،ص.119.

(24)- مسلم ،المصدر السابق ، ص.95.

(25)- الزياني ، المصدر السابق ، ص.119 .

(26)- أحمد، بن آبي الضياف ، إتحاف أهل الزمان في أخبار ملوك تونس و عهد الأمان ،ط2،الجزائر :الدار التونسية للنشر و الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ،1971،ج2، ص.217.